عنوان البرنامج: مدخل لدراسة التصوف
الوحدة الثالثة: أصول التقويم الداخلي للتصوف
الدرس الأول: إجراءات التوقف والتسليم في التقويم المعرفي
اسم المحاضر: الدكتور عبد الصمد غازي

إجراءات التوقف والتسليم في التقويم المعرفي

سبق الحديث عن وظيفة منهج التسليم والتوقف بخصوص المجالات الخلافية في الفكر الإسلامي بين رموز الأمة المشهود لهم بالعلم والصلاح، ولا أدل على ذلك من ضرورة الانتباه إلى اتجاه النقد الذاتي لدى بعض أرباب التصوف، إذ من المعلوم أن الفكر الإسلامي عرف اتجاهات مختلفة في نقد التصوف بعضها من داخله لتصحيح مسار الفكر الصوفي والتنبيه على غلطات بعض الصوفية، حيث يمكن إدراجها فيما يمكن تسميته باتجاه التقويم الداخلي للتصوف، والذي كان يسعى أربابه هو تنقية الطريق الصوفي من دعاوى الدخلاء والأدعياء، والتحذير من أتباعهم، وتثبيت دعائم الممارسة الأصيلة في مجتمع تتجاذبه تيارات فكرية وسلوكية .

سلك كثير من العلماء سبيل التوقف والتسليم إيماناً بمقولة «الاعتقاد صبغة والانتقاد حرمان»¹، ويعتبر رد شيخ الإسلام النووي² عندما استفتي في ابن عربي - الذي يعتبر مدار خلاف كبير بين أهل الاعتقاد والانتقاد - معتمد أهل التسليم، حيث كتب الآية الكريمة: ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾³، وقد نقل ابن العماد الحنبلي حكاية الشيخ زروق عن شيخه القوري⁴

1. شذرات الذهب، 5/192.

2. (631 هـ - 676 هـ) يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني، النووي، الشافعي، أبو زكريا، محيي الدين: علامة بالفقه والحديث. مولده ووفاته في نوا (من قرى حوران، بسورية) واليه نسبته. تعلم في دمشق، وأقام بها زمناً طويلاً. من كتبه «تهذيب الأسماء واللغات» و«منهاج الطالبين» و«رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين». الأعلام، 8/149.

3. البقرة: 134.

4. أبو عبد الله محمد بن محمد بن قاسم بن محمد اللخمي المكناسي، ثم الفاسي، الأندلسي الأصل، شهر بالقوري (بلد قريب من إشبيلية). شيخ الجماعة بفاس وعالمها العلامة ومفتيها المشاور الفهامة، الشيخ الفاضل المتبحر في العلوم مع استحضر للنوازل. له شرح على المختصر، توفي في ذي القعدة سنة 872 هـ وكان مولده سنة 804 هـ. انظر: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد بن محمد مخلوف، المطبعة السلفية، القاهرة، 1349 هـ، 1/261.

قوله: «اختلف فيه من الكفر إلى القبطانية والتسليم واجب، ومن لم يذق ما ذاقه القوم ويجاهد مجاهداتهم لا يسعه من الله الإنكار عليهم».⁵

وقد سار على هذا النهج من المتأخرين الشيخ أبو العباس أحمد المقرئ التلمساني⁶، حيث قال في كتابه أزهار الرياض في أخبار عياض: «والذي عند كثير من الأخيار في أهل هذه الطريقة التسليم، ففيه السلامة وهي أحوط من إرسال العنان، وقول يعود على صاحبه بالملامة، وما وقع لابن حجر وأبي حيان⁷ في تفسيره من إطلاق اللسان في هذا الصديق وأنظاره، فذلك من غلس الشيطان، والذي أعتقده ولا يصح غيره، أن الإمام ابن عربي ولي صالح وعالم ناصح، وإنما فوق إليه سهام الملامة من لم يفهم كلامه، على أنه دست في كتبه مقالات، قدره يجلب عنها، وقد تعرض من المتأخرين ولي الله الرباني سيدي عبد الوهاب الشعراني نفعنا الله به لتفسير كلام الشيخ على وجه يليق، وذكر من البراهين على ولايته ما يثلج صدور أهل التحقيق، فليطالع ذلك من أراد الله ولي التوفيق».⁸

فالمقرئ طرح رمزية الخطاب الصوفي وإشاريته التي ينبغي مراعاتها عند التعامل مع نص مثل النص الأكبري، كما نص على ضرورة الاحتراز عما يقع من الدس في كتب القوم، ولذلك فالأولى حسن الاعتقاد والتسليم حتى لا يتم الوقوع في أعراض العلماء، خصوصاً إذا كانت بواعث الأحكام هوى النفس، وهذا ما قرره المناوي بقوله: «وفريق قصد بالإنكار عليه وعلى أتباعه الانتصار لحظ نفسه، لكونه وجد قرينه وعصريه يعتقده وينتصر له، فحملته حمية الجاهلية على معاكسته فبالغ في خذلانه وخذلان أتباعه ومعتقديه، وقد شوهد عود الخذلان والحمول على هذا الفريق، وعدم الانتفاع بعلومهم وتصانيفهم على حسنهما».⁹ وإذا كان من الإنصاف الأخذ بمبدأ التسليم وحسن الظن، فمن الإنصاف

5. شذرات الذهب، 192/5-193.

6. (992 هـ - 1041 هـ) أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى، أبو العباس المقرئ التلمساني: المؤرخ الأديب الحافظ، صاحب (نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب)، في تاريخ الأندلس السياسي والأدبي. ولد ونشأ في تلمسان (بالمغرب) وانتقل إلى فاس، فكان خطيبها والقاضي بها. ومنها إلى القاهرة وتنقل في الديار المصرية والشامية والحجازية، وتوفي بمصر ودفن في مقبرة المجاورين. وقيل: توفي بالشام مسموماً، عقب عودته من اسطنبول (كما في تقييد في التراجم) والمقرئ نسبة إلى مقرة (بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة) من قرى تلمسان. له (عدا نفع الطيب) كتب جليلة منها (أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض)، و(روضة الأئس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقبته من علماء مراكش وفاس) و(حسن الثنا في العفو عمن جنى) و(عرف النشق في أخبار دمشق) وأرجوزة سماها (إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة). الأعلام، 1/237.

7. (654 هـ - 745 هـ) محمد بن يوسف بن علي بن يوسف ابن حيان الغرناطي الأندلسي الجياني، النفري، أثير الدين، أبو حيان: من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات. ولد في إحدى جهات غرناطة، ورحل إلى مالقة. وتنقل إلى أن أقام بالقاهرة. وتوفي فيها، بعد أن كلف بصره. واشتهرت تصانيفه في حياته وقرئت عليه. من كتبه (البحر المحيط) في تفسير القرآن، و(النهر) اختصر به البحر المحيط، و(مجمعي العصر) في تراجم رجال عصره. الأعلام، 7/152.

8. شذرات الذهب، 5/193.

9. نفسه، 5/193.

أيضا الرجوع إلى الحق والعدول عن الرأي إذا ظهر الخطأ فيه، فسلطان العلماء ابن عبد السلام¹⁰ كان من أشد المنتقدين لابن عربي، «فإنه سئل عنه أولا، فقال: شيخ سوء كذاب لا يحرم فرجا، ثم وصفه بعد ذلك بالولاية بل بالقطبانية وتكرر ذلك منه».¹¹

غاية ما يستند إليه المنتقدون هو عدم إجازة تأويل كلام القوم، قال المناوي: «وأقوى ما احتج به المنكرون أنه لا يؤول إلا كلام المعصوم، ويرده قول النووي في بستان العارفين بعد نقله عن أبي الخير التبياني واقعة ظاهرها الإنكار، قد يتوهم من يتشبهه بالفقهاء ولا فقه عنده أن ينكر هذا، وهذا جهالة وغباوة، ومن يتوهم ذلك فهو جسارة منه على إرسال الظنون في أولياء الرحمن، فليحذر العاقل من التعرض لشيء من ذلك، بل حقه إذا لم يفهم حكمهم الاستفادة، ولطائفهم المستجادة، أن يتفهمها ممن يعرفها، وربما رأيت من هذا النوع مما يتوهم فيه من لا تحقيق عنده أنه مخالف، ليس مخالفا، بل يجب تأويل أفعال أولياء الله».¹²

فالنووي أوجب تأويل أفعال أولياء الله تعالى، وبالتالي تأويل أقوالهم أوجب، إذ لا فرق بين الحال والمقال، وكان المجد الفيروزبادي¹³ صاحب القاموس عظيم الاعتقاد في ابن عربي، ويحمل كلامه على المحامل الحسنة، وطرز شرحه للبخاري بكثير من كلامه¹⁴، ويشهد بذلك ما أجاب به على سؤال بخصوص ابن العربي وبعض تصانيفه، «ما تقول العلماء شد الله بهم أزر الدين، وألم بهم شعث المسلمين في الشيخ محي الدين بن العربي، وفي كتبه المنسوبة إليه كالفتوحات والفصوص وغيرهما، هل تحل قراءتها وإقراؤها للناس أم لا؟ (...). فأجاب رحمه الله رحمة واسعة، اللهم أنطقنا بما فيه رضاك، الذي أقوله في حال المسئول عنه وأعتقد وأدين الله سبحانه وتعالى به، أنه كان شيخ الطريقة حالا وعلماء، وإمام

10. (577 هـ - 660 هـ) عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، عز الدين الملقب بسلطان العلماء: فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد. ولد ونشأ في دمشق. وزار بغداد سنة 599 هـ فأقام شهرا. وعاد إلى دمشق، فتولى الخطابة والتدريس بزواية الغزالي، ثم الخطابة بالجامع الأموي. ولما سلم الصالح إسماعيل ابن العادل قلعة «صفد» للفرانج اختيارا أنكر عليه ابن عبد السلام ولم يدع له في الخطبة، فغضب وحبسه. ثم أطلقه فخرج إلى مصر، فولاه صاحبها الصالح نجم الدين أيوب القضاء والخطابة ومكثه من الأمر والنهي. ثم اعتزل ولزم بيته. توفي بالقاهرة. من كتبه «التفسير الكبير» و«الإمام في أدلة الاحكام» و«بداية السؤل في تفضيل الرسول»، و«مسائل الطريقة» تصوف. الأعلام، 21/4

11. شذرات الذهب، 193/5.

12. نفسه، 194/5.

13. (729 هـ - 817 هـ) محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر، أبو طاهر، مجد الدين الشيرازي الفيروزآبادي: من أئمة اللغة والأدب. ولد بكارزين (بكسر الراء وتفتح) من أعمال شيراز. وانتقل إلى العراق، وجال في مصر والشام، ودخل بلاد الروم والهند. ورحل إلى زبيد سنة 796 هـ فأكرمه ملكها الأشرف إسماعيل وقرأ عليه، فسكنها وولي قضاءها. وانتشر اسمه في الآفاق، حتى كان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير، وتوفي في زبيد. أشهر كتبه (القاموس المحيط). و(المغانم المطابة في معالم طابة)، (بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز) و(سفر السعادة) في الحديث والسيرة. الأعلام، 146/7.

14. شذرات الذهب، 194/5.

الحقيقة حدا ورسمًا، ومحبي رسوم المعارف فعلا وإسمًا، إذا تغلغل فكر المرء في طرف من بحره غرقت فيه
خواطره في عباب لا تدركه الدلاء، وسحاب تتقاصر عنه الأنواء، وأما دعواته فإنها تحرق السبع الطباقي،
وتفترق بركاته فتملاً الآفاق، وأني أصفه وهو يقينا فوق ما وصفته، وغالب ظني أني ما أنصفته.

وما علي إذا ما قلت معتقدي ***** دع الجهول يظن الجهل عدوانا

والله تالله بالله العظيم ومن ***** أقامه حجة لله برهاننا

إن الذي قلت بعض من مناقبه ***** مازدت إلا لعلي زدت نقصانا

وأما كتبه فإنها البحار الزواجر جواهرها، لا يعرف لها أول من آخر، ما وضع الواضعون مثلها،
وإنما خص الله بمعرفتها أهلها، فمن خواص كتبه أنه من لازم مطالعتها والنظر فيها، انحل فهمه لحل
المشكلات وفهم العضلات». ¹⁵